United Nations Development Fund for Women
UNIFEM

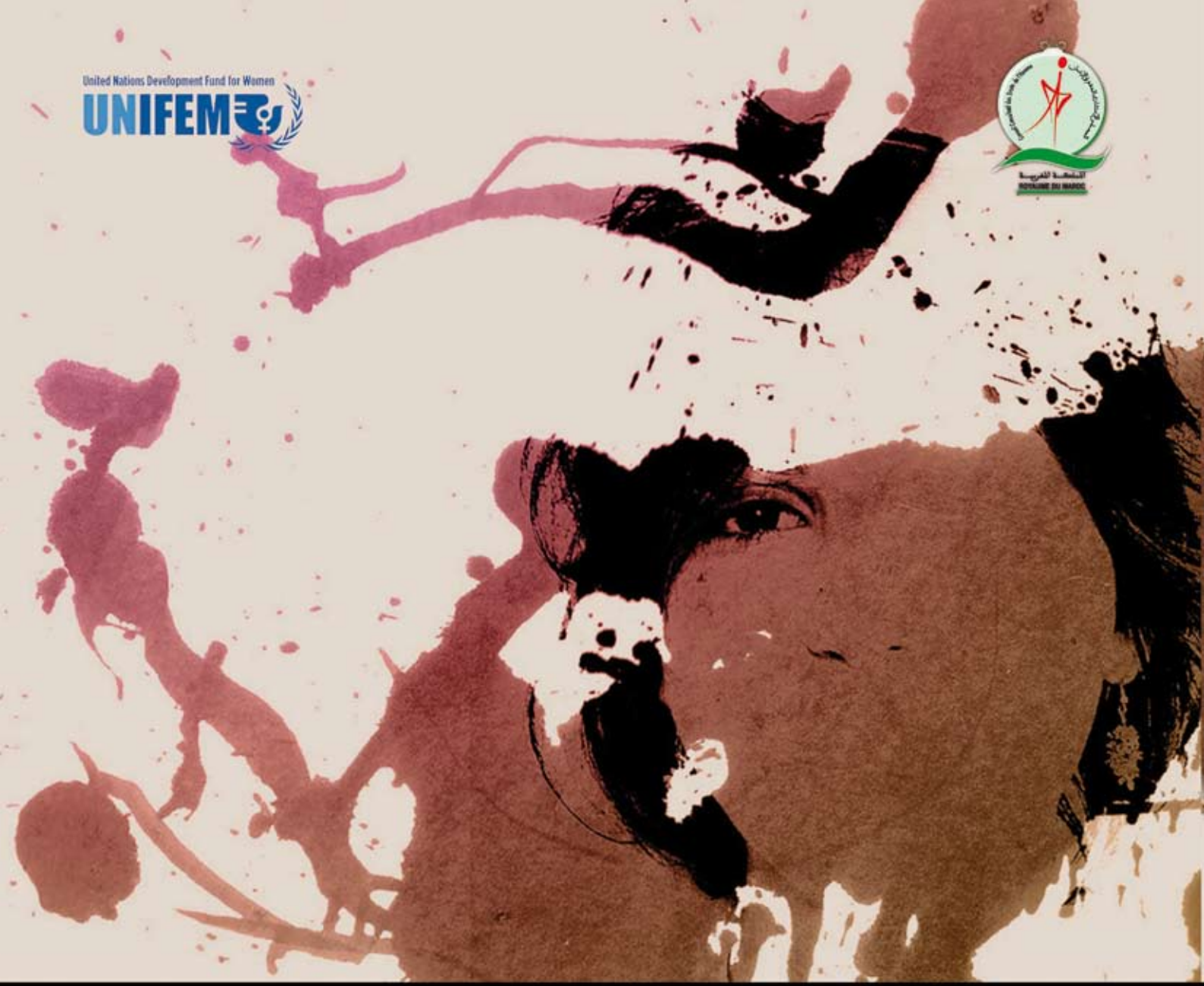

نساء كسرن جدار الصمت

مرويات نساء سنوات الرصاص

الفهرس

- تقديم
- حفيظة : امرأة خذلت مرتين
- ايزة : ضحية تزمارت
- خديجة : قصة اغتصاب
- أمي حليمة : الأم الشجاعة
- تودة : كوابيس طفلة

تقديم

مساهمة منه في التعريف بالعنف السياسي الموجه ضد النساء و بعد إنجاز مجموعة من الدراسات يصدر المجلس الإستشاري لحقوق الإنسان، حفظا للذاكرة و تعريفا بها ، منتوجا جديدا ومميزا، على شكل مرويات لنساء من زمن سنوات الجمر ، نساء ليس لهن قدرة على الكتابة ولكنهن يتوفرن على شجاعة نادرة لحكي سيرتهن الذاتية، سيرة متفردة لكن لا يمكن فصلها عن تاريخ بلد بأكمله .

أمي حليمة، تودة، خديجة، إيزة، حفيظة، كلها عناوين متعددة لحكاية واحدة، لشخصية واحدة مهما تعددت الأسماء. إنها قضية كاد يطويها النسيان، نقبت هيئة الإنصاف والمصالحة عن صاحباتها في جغرافية المغرب المنسي ، فكان اللقاء معهن إيذانا ببداية مغرب جديد يسعى للتصالح مع ذاته، كشفت الحكايات ما تعرضت له هؤلاء النسوة من معاناة و تعذيب و إقصاءٍ وسوء معاملة ، فقط لأن القدر اختارهن ليكن بنات أو إخوة أو أمهات أو زوجات لخصوم سياسيين للدولة، و في بعض الحالات جعلهن سوء حظهن يتواجدن في مكان و زمان غير مناسبين.

إن نشر هذه المرويات ليس الغاية منه إيقاظ المواجع او لشيء من هذا القبيل بل من أجل خلق فهم افضل لمعاناة ظل الكثيرون لا يعرفونها و في أحسن الأحوال يصنفون صاحباتها بالضحية غير المباشرة، إنه عنف و تهجير و إقصاء من الحياة عاشته نساء بالسنين و الشهور و الأيام و الساعات و الدقائق من أجل الإستمرار في الحياة و غالبا ليس من أجل أنفسهن بل من اجل فلدات أكبادهن.

المرويات التي بين أيدينا، **تسرد** سيرة حياة خمس نساء تعرضن لجميع أنواع التهميش و العزلة، باعتبارهن قريبات لرجال اعتقلوا أو اختفوا بسبب انتماءاتهم السياسية.نساء يعشن في جو من الخوف و الشك، و كثيرا ما لفظتهن مجتمعاتهن المحلية. **تحكي** المحن التي عشنها خلال إعتقالهن و إحتجازهن و استجوابهن و تعذيبهن و مضايقتهن و إذلالهن بدون احترام لكرامتهن كنساء مغربيات لهن خصوصياتهن. **تصف** حالة نساء وجدن أنفسهن فجأة مرغمات لإعالة أطفال وشيوخ أضحوا فجأة دون أي مورد للرزق.

و رغم قساوة المحن و التعذيب و الترهيب صمدت النساء و قاومن على جميع الواجهات فوفرن الغذاء لأطفال صغار و شيوخ كبار، و تحملن إقصاء مجتمع محافظ و سافرن كثيرا للبحث عن أب أو زوج أو أخ أو قريب. لقد ضحين بسعادتهن وشبابهن و صحتهن....و من **حكايتهن** اليوم نصنع العبور نحو مغرب أفضل.

ختاما، أشكر كل النساء الضحايا على تعاونهن المثمر، أشكر صندوق الأمم المتحدة الانمائي للمرأة على دعمه الكبير ، أشكر كل اللواتي والذين تجندوا لإخراج هذا العمل.

أحمد حرزني

رئيس المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان

حليمة : امرأة خذلت مرتين

في كل مكان، في كل مدينة، في كل حي، يكاد يكون في كل بيت، عشرات النسوة ضحايا التعذيب النفسي والجسدي اخترن التواري، والصمت كأفضل أنيس. حفيظة واحدة منهن، التحفت الصمت لأكثر من عشرين سنة. في مدينة الناظور حيث أرست قافلة الإنصاف و المصالحة، ثم اللقاء مع حليمة لأول مرة، المرأة المكتئبة، ذات الوجه المعبر عن كل أنواع الإحباط و الاكتئاب، قررت أخيرا ان تكسر جدار صمتها و أن تحكي عن معاناتها التي ابتدأت باعتقال زوجها سنة 1984 خلال الاضطرابات التي عرفتها مدينة الناظور بعد الزيادة في أسعار المواد الغذائية و الرسوم الدراسية التي عرفها المغرب انذاك.

لم يكن من السهل على حفيظة أن تضع قصتها بين أيدي اي كان، فقد كانت تحكي بشكل متقطع وبين الحين و الآخر تعود لمعانقة الصمت كأنها تخجل مما تقول. في عينيها تطل نظرة الحيرة واليأس،كانت الدموع تسبقها الى الكلام ..تخنقها..تزدرد ريقها، ثم تتكلم متنهدة " اسمي حفيظة، ترعرعت في منطقة الناظور في بيئة محافظة جدا، حيث جرت العادة على بقاء المرأة في المنزل. مات والدي وانا طفلة فتيتمت، تزوجت أمي، فأحسست باليتم ثانية. تولى جدي تربيتي وكأنني واحدة من ممتلكاته، احتجزني كما تحتجز البهيمة، لم أكن أرى الناس إلا نادرا، حين تزوجت ابن خالي في سن مبكرة ، تكرر معي الأمر نفسه ، منعني هو الأخر من الخروج من البيت، كتمت سري و ألمي وندرت نفسي لتربية أبنائي".

الصمت يعود من جديد ومعه الدموع التي اتخدت من عيون حفيظة مسكنا اليفا ، تنفخ في الهواء وتتمم كلامها قائلة :

"كان زوجي موظفا بسيطا بوزارة الفلاحة ، لم أكن أعرف الشئ الكثير عن أعماله، فقد اعتاد مغادرة البيت بدون علمي، لكن بوجود المأكل و المشرب كنت احس اني املك كل شيئ. أنجبنا ثلاثة أطفال خلال العقد الأول من زواجنا، اثنان منهما كانا يذهبان إلى المدرسة، في حين كان الطفل الأصغر لا يزال رضيعا. كنت سعيدة مع زوجي وأبنائي إلى حين ذلك اليوم المشؤوم الذي انقلبت فيه حياتي رأسا على عقب. في أحد أيام سنة 1984، وقف مجموعة من الرجال على باب منزلنا في ضواحي الناظور. كانوا يرتدون ملابس مدنية، و لم أستطيع أن أتأكد مما إذا كانوا من رجال الشرطة أو من الجنود أو غيرهم من سلطات الدولة. طلبوا التحدث إلى زوجي وطلبوا مني البقاء بعيدا عنهم. قاموا باستجوابه و بحثوا عن الكتب في المنزل، في الوقت الذي كنت فيه متوارية عن الأنظار في السطح. بعد ذلك طلبوا التحدث إلي. نزلت إليهم، استجوبوني عن أنشطة زوجي، عما يفعله وعن المكان الذي يذهب إليه. أرادوا أن يعرفوا أيضا كل من يجيء لمقابلته. قلت لهم بصدق انني لا أعرف شيئا، و أنه نادرا ما يأتي الزوار إلى المنزل. أخذوا زوجي بعيدا و اخبروني أنهم سيعودون في غضون أسبوعين لاستجوابنا مجددا. كان هذا أول لقاء لي مع المخزن. تولاني الرعب و لم أعرف ما الذي كان ينبغي علي أن أقوله أو أفعله.

ذهبت إلى منزل خالي و أخبرني بما حدث. أوضح لي أن الرجال الذين جاؤوا إلى منزلي وأخذوا زوجي بعيدا، هم من رجال الشرطة. اكتشفت كذلك أني لست وحدي في تلك الحالة، بل كانت هناك موجة من الاعتقالات في منطقة الناظور وأسفرت عن اعتقال كثير من الرجال الآخرين. و على مدى خمسة أشهر، عشت دون أية أخبار عن زوجي. كنت أجهل مكان احتجازه أو حتى سبب ذلك الاحتجاز، لم أكن أعرف ما إذا كان قد قتل شخصا أو سرق شيئا ما، لا أعرف حينها لمن ألجأ لطلب المساعدة، و لاكيف يمكنني الحصول على أي معلومات إضافية، كما أن أسرة زوجي لم تساعدني البتة. كنت خائفة و ظللت مختبئة في منزلي مع أطفالي الثلاثة. خلال تلك الشهور الخمسة، قام رجال الشرطة بزيارات متكررة إلى منزلنا، فتشوا المنزل و ضايقوني و استجوبوني. أخبرتهم مرارا أنني لا أستطيع الإجابة على أي من أسئلتهم. و مع ذلك قاموا باحتجازي ليوم كامل حيث تعرضت للضرب و الترهيب. كنت معصوبة العينين بحيث لا أرى وجوه من يستجوبني. اتهموني بأنني أكذب للتستر عليه.

طوال كل هذا الوقت، تجنب جيراني و أقربائي، أي اتصال معي خوفا و رهبة من اضطهادهم باستثناء والدتي التي كانت السند الوحيد لي ولأولادي. عشت خمسة أشهر من الخوف و العزلة مما حدث وفي ترقب مجهول أعرف أنه أليم ، عشت دون معلومات عن زوجي، اكتشفت بعد هذه المدة أنه قد تم نقله إلى أحد السجون في آسفي. وبمساعدة أخي الشقيق، ذهبت لمقابلته في السجن. و بعد أن طرحت علي الشرطة بعض الأسئلة الأولية، سمحت لي بمقابلته. أبلغني عندئذ أنه قد حُكم عليه بالسجن مدى الحياة وعرض علي أن يطلقني قائلا : "اسمعي يا ابنة خالي: أريد أن أكون صادقا معك. أنت لم تكوني على علم بأي شيء من هذا. كانت مسألة شخصية و هي الآن تعنينا جميعا... اعتن بنفسك وبالأطفال... لا أريد أن أظلمك معي. أنت مازلت شابة. إذا كنت ترغبين في الطلاق و تريدين أن تتزوجي من جديد فسوف أمنحك حريتك". صدقت أنه احترم العشرة التي كانت بيننا، كنا متزوجين منذ عشر سنوات، و كان لدينا ثلاثة أطفال، أكبرهم كان يبلغ من العمر ثماني سنوات في حين لا يتجاوز سن أصغرهما سنة واحدة فقط. كأي أم شريفة رفضت العرض الذي قدمه لي زوجي، و كرست كل حياتي اربي أطفالي منتظرة زوجي مخلصة له.

بعد ذلك، بدأت أعيش مأساة أخرى، فقد أوقف المخزن راتب زوجي و بذلك لم أعد أملك أي مصدر للدخل. لم يسبق لي أن عملت خارج المنزل. و في الحقيقة، لم تكن لي أي خبرة في التعامل مع العالم الخارجي. كنت خائفة جدا من فكرة البحث عن عمل خارج بيتي. كنت يتيمة الأب ليس لدي أقارب من الذكور القادرين على حمايتي، مما جعلني أحس بالضعف بوجه خاص، و لم أكن لأقدر على البقاء على قيد الحياة و إعالة أطفالي، لولا مساعدة و حنكة أمي التي اشتغلت كعاملة مؤقتة في قطف الزيتون و الحمص و مختلف المهن المرتبطة بمجال الزراعة. كما عملت خادمة في البيوت، مقابل أجر متواضع. كانت الحياة قاسية جدا بالنسبة لي ولأسرتي خصوصا في الأيام الأولى. كنت أظل طريحة الفراش في كثير من الأحيان وأبكي لساعات طوال، خصوصا حين أعود من زيارة زوجي في السجن. انقطع أولادي

عن الدراسة و اضطروا إلى العمل من أجل المساهمة في توفير دخل يعين الأسرة على العيش، و كانوا يحصلون على دراهم قليلة من بيع المياه والأكياس البلاستيكية في السوق. كنت أرغب أن أبني المستقبل لأولادي لاأن أطلب منهم أن يعيلوني. ليت المصيبة لفتني وحدي، أولادي أيضا عانوا من تهميش الجيران لهم وعزلهم. لم يعيشوا حياة الأطفال الطبيعية، بل عاشوا كمجرمين مهمشين.

أقرباء زوجي أيضا، الذين هم أقربائي، لم يقدموا لي أي دعم مالي أو معنوي و لم يبدوا أي اهتمام بي و بأولادي، بل حاولوا طردي من منزل ابنهم رغبة منهم في الاستيلاء عليه بعد أن تأكدت إدانته. لكنني قاومتهم و رفضت مغادرة البيت، فليس لي أي مكان آخر أذهب إليه مع أولادي. و كانت تلك تجربة من بين أسوأ التجارب التي مرت علي و أصعبها. لم أنس كيف تعذب أولادي باكين من جراء ما حدث لهم، فلم يرحمهم أحد، لقد تواطئ الجميع على تصدير الألم إليهم: الدولة، الجيران، الأقرباء و الأقران."

الذكريات أكبر من ان تحتمل ، ينوب الدمع عن حفيظة وهي تحكي عن فلذات اكبادها العاجزين امام ظلم الآخر، تطلق الزفرات وتسترسل :

"بعد عشر سنوات طويلة وشاقة، أُفرج عن زوجي من السجن و عاد إلى بيته. وهكذا كان علي أن أنتظر إطلاق سراحه لأعرف أنه كان بالفعل سجينا سياسيا. وخلال كل تلك السنوات التي قضاها في السجن، و على الرغم من أنني كنت أزوره، لم يسبق له أن أعطاني تفسيرا عن أسباب اعتقاله.

خلال السنوات القليلة الأولى عقب الإفراج عن زوجي، صارت الأمور على ما يرام و أنجبنا ثلاثة أطفال آخرين. لكن مزاج زوجي بدأ يتغير مع مرور الأيام، وأصبح لا يتردد في ضربي وضرب الأولاد لأتفه الأسباب، كما كان يعيلنا بصفة غير منتظمة. ثم أعلن عزمه على الاقتران بزوجة ثانية وإسكانها معنا في المنزل. رفضت طبعا العيش مع امرأة أخرى فأصبح المنزل مسرحا للصراعات طوال الوقت، الأطفال لم يتحملوا ذلك، راودهم إحساس عميق بالخيانة من طرف والدهم. ترتب عنه هرب اثنان منهم من المنزل وأصبحا من المنحرفين ومن أطفال الشوارع ثم رحلا عن الناظوركليا ، انتقل أحدهم إلى أكادير، و انتقل الآخر إلى مليلية و من هناك هاجر بطريقة غير شرعية إلى إسبانيا بحثا عن حياة أفضل.

لا يعقل أن أذل مرة أخرى. فعلى الرغم من كل التضحيات التي قدمتها أثناء وجود زوجي في السجن، و بالرغم من المعاناة و الفقر و القهر الذي مر علي و على أبنائي بسببه ، إلا أنه طلقني و رمى بي خارج المنزل خالية الوفاض، بل حرمني حتى من الصداق الذي يحق لي قانونا. لذا كان علي أن أدافع عن حقي في المحكمة للاحتفاظ بحضانة ثلاثة من أصغر أطفالي. كان علي أيضا أن أقاوم من أجل إجباره على دفع نفقات حضانة الأطفال. بعد كل تلك السنوات التي تحملت فيها تبعات أفعاله و عانيت فيها من أجله، رمى بي في نهاية المطاف بكل بساطة ... هذا ما يؤلمني أكثر.

بعد أن حصل على تعويضات من الدولة، تزوج بامرأة أخرى وتخلى عن أطفاله، بل إنه لم يخبرني بالتعويضات التي حصل عليها من الدولة بعد الإفراج عنه، و إنما علمت بالأمر من أناس آخرين كان قد تم اعتقالهم في نفس الفترة و تلقوا تعويضات. و إذا كنت قد وقفت إلى جانبه و رفضت أن أتخلى عنه عندما كان يقضي عقوبة السجن مدى عشر سنوات رغم أني لم أكن أملك أي مصدر للدخل، فإنه بالمقابل هجرني أنا و أطفالي و تخلى عني في اللحظة التي تلقى فيها تعويضات من الدولة، و هي الظرفية التي تعبت فيها من البهدلة أنا و أبنائي و كنت في أمس الحاجة للاستقرار و الراحة.

انتابني شعور عميق بالمرارة بأنني وقعت ضحية خيانة مزدوجة من طرف زوجي و من طرف الدولة. إنني أريد أن أعرف لماذا أعطت الدولة تعويضات لزوجي (إشارة إلى لجنة التعويض الأولى التي أنشئت سنة 1999) بما في ذلك دفع رواتبه المستحقة عن الفترة التي قضاها في السجن - بينما لم تقدم أي شيء لي و لأولادي الذين تمت التضحية بمستقبلهم دون أن يكون لهم يد في ما قام به أبوهم ، إنني لم أفعل شيئا خاطئا. لقد عوملت معاملة ظالمة. لماذا تُعطى الحقوق للرجال دون سواهم؟". فبعد اعتقال زوجي، تعرضت للضرب والاستجواب والاحتجاز بصورة غير قانونية، ووُضعت تحت مراقبة الشرطة المستمرة، الشيء الذي ساهم إلى حد كبير في تهميشي من طرف المجتمع. وبعد ذلك طلقني زوجي و رماني في الشارع. و أنا الآن أعيش في منزل ورثته عن أمي، وهو المنزل الذي أتقاسمه مع خمسة ورثة آخرين، حصتي فيه لا تتجاوز خمسة أمتار مربعة، إضافة ألى أنه غير مزود بالكهرباء. فيه أتصارع من أجل إعالة أطفالي الثلاثة الصغار، في حين أن أبوهم يتمتع مع الزوجة الثانية ، إذا أطعمتهم، عجزت عن كسوتهم، وإذا كسوتهم، عجزت عن إطعامهم".

غابت الدموع وحل مكانها بريق فيه الكثير من الحقد الممزوج بخبرة امراة خذلها الزمن مرتين، وفي هدوء كبير اضافت: " لا ينبغي للمرأة أن تربط علاقة زوجية مع الرجل حتى تعرف كل شيء عنه: لم أكن واعية، تزوجت رجلا تصرف معي حسب نزواته . لو كنت أعرف أن زوجي سيفعل ما فعله لما قبلت الزواج به و لما ضيعت حياتي معه... المرأة التي لا تعرف ولا تهتم إلا بإنجاب الأطفال تُضيّع نفسها و تسير إلى حتفها ... لا سيما المرأة غير المتعلمة و التي ليست لديها أسرة ترعاها و تفهمها. يجب على المرأة أن تعرف كل شيء عن زوجها قبل الزواج منه. ما وقع لي وقع أيضا لجارتي ، انظروا كيف عانينا نحن النساء و قاسينا كثيرا. و بعد خروج الرجال من السجن، يستبدلوننا بنساء أخريات، هكذا بكل بساطة .

ان الضرر الذي عشته أنا و أبنائي لم يعره الإهتمام أي أحد. لقد منحت الدولة زوجي التعويضات لإعادة بناء حياته، في حين لفني النسيان أنا وأطفالي, اشترى قطعة أرضية و تزوج، و هو الآن يعيش عيشة كريمة. أما انا فأعيش مغتربة هنا وابنائي مغتربون في بلدان بعيدة ".

كل ما أريده الآن هو منزل لائق حتى يتمكن أطفالي المغتربين الذين عانوا الكثير من العودة و ان يكون لهم بيت يعيشون فيه...

رغم كل آلام الذكرى كانت عينا حفيظة قد غزاها الأمل ..أمل ان تسترد كرامتها في منزل تستقبل فيه ابناءها ، و احفادها يتحلقون حولها لتصب لهم كؤوس الشاي .

ايزة : ضحية تزمارت

بمقر هيئة الإنصاف والمصالحة بالرباط سنة 2005 كان معها اللقاء ، جاءت بعد أن ظل الصمت رفيقها على مدى 34 عاما، لتحكي عن معاناتها منذ أن اعتقل زوجها سنة 1971، عقب انقلاب الصخيرات. الشعور بالوحدة، غياب الدعم، العزلة، الإقصاء... كلمات تترجم عمق معاناة واحدة من النساء ضحايا العنف السياسي بالمغرب.

ولدت ايزة عام 1950 بمنطقة الخميسات، و كمثيلاتها من النساء المنحدرات من أسر قروية فقيرة لم تذهب إلى المدرسة ولم تتعلم القراءة و الكتابة، تزوجت و عمرها 16 سنة، برجل يشتغل ملازما برتبة صغيرة بالجيش. اضطرت بسبب وظيفة زوجها العسكرية إلى التنقل المستمر محرومة من تواصل زيارات عائلتها، و أينما حلت و ارتحلت تفرغت ايزة لخدمة زوجها و أطفالها الأربعة و حماتها المسنة. تطهو، تنظف، تغسل وتربي ...قليلا ما تترك بيتها، فقط حين تتوجه مثلا إلى الحمام العمومي.

كانت تعيش مع زوجها بهرمومو، هناك انقلبت حياة ايزة رأسا على عقب في أحد أيام سنة 1971، حين فوجئت بأصوات شاحنات وسيارات الإسعاف متلاحقة بالمنطقة ، و بدأ الجنود في محاصرة البلدة و الهجوم على المنازل. تتذكر كل ذلك وتحكي :

"عند منتصف الليل اقتحم الجنود منزلنا حيث أحضن أطفالي الصغار الأربعة و حبلى بخامستهم، لم أفهم شيئا، لم نفهم أي شيء، كل ما أزال أتذكره أنني يومها كنت تائهة كليا. ليصل إلى أسماعي في وقت لاحق خبر انقلاب الصخيرات الذي تسبب في إلقاء القبض على عدد كبير من الجنود بهرمومو، و كان زوجي واحدا منهم. لم يكن يعلم شيئا و لم نكن نعلم شيئا نحن أيضا. و على مدى ثلاثة أشهر بقينا كذلك لا نعرف ما يتعين علينا فعله، أجهل كل شيء عن مصير زوجي، و لنكتشف بعد ذلك أنه بتزمارت، و لنعيش نحن تحت المراقبة في خوف و هلع مستمر، كانوا يداهمون البيت في أي وقت، ليلا و نهارا. للبحث في جميع جنباته، أصبحت عرضة لكل أنواع التعنيف، الأولاد يشرعون في البكاء كلما حل الجنود بالبيت، لا يمنعهم أي وقت، سواء أكنا مستيقظين أو نيام. لم يعد أحد من الجيران يجرؤ على الاقتراب منا، لقد استبد بهم الرعب، و هم يسمعون أصوات الصراخ و الصياح. هكذا بدأ عذابنا و عزلتنا يتناميان .

إضافة إلى ذلك كان القهر، فزوجي لم يترك مالا بالبيت، و لم أكن أملك أي مدخرات و لا أتوفر على أي مصدر للعيش، فدخلت في دوامة الكفاح من أجل إعالة أطفالي. كنا أحيانا نقتات الخبز مغموسا في الماء، و من حين لآخر يمدنا بعض الجيران، خلسة من الجنود، بشيء من الطعام. كلما فتر إيقاع الحراسة، و بالكاد تمكنا من البقاء."

عزلة ايزة عن الناس جعلت منها امرأة قليلة الكلام، تنظر نحو البعيد في الماضي، تلملم شتات الذكرى و تستأنف كلامها :

"بعد مرور مدة من العذاب و الإستجوابات و الإستنطاقات و الإذلال، وصل شقيقي من الدار البيضاء لزيارتنا، ساعدنا على الرحيل، استأجر لنا بيتا في أحد الأحياء الفقيرة بمدينة مجاورة و دفع الإيجار. كنت ارغب في العمل، لكن

تجربتي منعدمة و الخيارات المتاحة أمامي تبقى محدودة جدا كنت أجد الشغل المرتبط بالتنظيف في المقاهي، غير أنني ما ان أبدأ في الاستقرار حتى تسبقني مضايقات الشرطة و يكتشف الجميع أمري. يتربصون بي، يرصدون تحركاتي، و يذهبون إلى مشغلي ليخبروه بأنني "زوجة مجرم"، و ليتم فصلي فورا من العمل. لذلك لجأت إلى البيوت كخادمة، أتولى أعمال الطهي و التنظيف لساعات طويلة مقابل حوالي 20 درهما في اليوم. لم تتوقف معاناتي عند هذا الحد، بل عانيت من انقطاع ابنتي عن الدراسة لتلتحق بي كخادمة في البيوت. و سيضطر أطفالي الآخرين إلى العمل، بعد الانصراف من المدرسة من أجل كسب لقمة العيش، لقد عانوا كثيرا، بسبب غياب والدهم. لا يدرون ما يفعلون كلما طلب منهم المدرس اصطحاب ولي أمرهم، مما يعيد شريط المأساة أمامنا مرارا، و يسألونني أسئلة أكبر من أعمارهم، الشيء الذي يفهمونه هو أن السجناء مجرمون، و بالتالي فإن أباهم مجرم .

بكت ايزة بحرارة و هي تتحدث عن كفاح أبنائها قائلة :

حزني كبير على أولادي، لقد حرموا من والدهم لمدة 22 عاما، كما حرموا مني انا ايضا . كنت أنطلق إلى العمل في السادسة صباحا ولا أعود سوى في وقت متأخر من الليل. أجهد لكي يستمروا في الحياة، لم يكن لي ثمة وقت للراحة، و كأني لا أعيش في نفس البيت معهم، هكذا كنت أفقد معنى الحياة الأسرية و الاجتماعية لا أجالس أبنائي و لا جيراني لنتحادث أو لنتبادل الأخبار. كنت منطوية على نفسي، مطوقة بعزلة ثقيلة. هناك شيئ وحيد كان يمنحني العزاء و هو أن أربعة من أبنائي لم يتركوا المدرسة، و تحدوا كلام الناس و مضايقاتهم ، و هو بمثابة معجزة بالنسبة لي، نظرا لوضعية القهر و الفقر و الخوف و مضايقات الشرطة لنا. لم ألجأ حينها إلى أحد و لم أكن أعرف لمن أتوجه.

على مدى 22 سنة عشت و أسرتي على هامش المجتمع، كاتمة أسراري، محرومة من أي أخبار عن زوجي، إلى أن قرأ ابني ذات يوم في إحدى الصحف مقالا عن تزمارت مشفوعا بلائحة المعتقلين الذين خرجوا أحياء من هناك. و ليكتشف و نكتشف معه أن والده مايزال على قيد الحياة. جمعت أبنائي و حماتي التي ظلت تعيش معنا، و انتقلنا إلى المكان الذي نقلوهم له من تزمارت، عند وصولنا، اعتقدت ابنتاي أنهما تعرفتا على والدهما بمجرد ما رأوا أحد المفرج عنهم يظهر، وارتمتا عليه و بدأتا في معانقته، لكن للأسف أخبرتهما بأنه ليس بوالدهما. لقد ترك الأولى عام 1971 طفلة و الثانية كانت ماتزال جنينا في بطني.

ثم رأيته يظهر، لقد تغير كثيرا إلى درجة بالكاد يمكننا التعرف عليه. كان الوهن مستبدا به، لا يستطيع المشي من تلقاء نفسه، يسنده حارسان، ليساعداه على الجلوس على الكرسي. تقدم نحوه ابنه الذي ظل يردد بحماس بالغ :

"أنا ابنك، أنا ابنك..."

لكنه لم يكن قادرا على استيعاب ذلك وظل ينظر إليه و هو يردد نفس السؤال : من أنت، من أنت؟

أحسست بصدمة ابني و أبوه لا يتعرف عليه و يستفسره عمن يكون، نفس الشيء بالنسبة للبنات، فقد صدمن أيضا، أبوهن لم يتعرف عليهن و لم يستطع استيعاب أسمائهن، و ظل يخلط بينهن و يسأل عنهن، و لم يتمكن من

حفظ الأسماء إلا في الزيارة الثانية أو الثالثة.

... بعد ذلك منعونا و تعذرت الزيارة، حدثنا أحد الحراس بكلام مبهم، مفاده أن زوجي قد يكون توفي. حزنت كثيرا، لم أستطع الأكل و بقيت أبكي لأيام ، دخلت الأسرة على إثر ذلك في حداد. مرت عدة أيام و نحن نعتقد أن زوجي قد مات ، لكني كنت دائما أتساءل لماذا لم يسلمونا الجثة، فرؤيته ميتا سيطفئ نار السؤال بدواخلنا .

ذهبت ذات يوم لزيارة أخي في البادية، و إذا بابني يلحق بي بشكل مفاجئ ليخبرني بصوت متأثر بأن والده قد أفرج عنه. لم يكن أحد في استقباله، لأننا لم نكن نعرف، لكن ذلك لم يكن مهما، كنا مبتهجين للغاية بالخبر، كنا كما لو أننا رزقنا بمولود جديد، السعادة تغمرنا جميعا. انطلق أخي توا للتسوق، و أعددنا وجبة خاصة للاحتفال بالمناسبة. توافد الناس علينا للزيارة و تقديم التهاني، حتى الذين بالكاد أعرفهم جاءوا للتهنئة.

عندها فقط توقفت عن العمل و لزمت البيت، كل شيء بدا لي على مايرام، لكنني لاحظت أن زوجي أصبح قاسيا عكس ما كان عليه في السابق، لا يتحدث معي إلا نادرا و عندما يفعل تكون كلماته قاسية جدا، ثم بدأ يضربني ..نعم لقد بدأ يضربني، و ذات يوم أخبرني بأنه عازم على الزواج ثانية... لم يستشر معي، فقط أخبرني و ذهب...

عندئذ أحسست بحياتي، كل حياتي تذهب هباءا منثورا... معاناتي و تضحياتي و معاناة أطفالي كل شيء ذهب سدى. تمنيت للحظة لو بقي في السجن، ربما لحظة الانتظار أهون من الإحساس بالخيانة، بقيت مصدومة لأيام، لا أفهم ما الدافع لفعلته الشنيعة هاته. بعد زواجه بالمرأة الثانية انتقل ليعيش معها و طفليها".

وقفت لبرهة، أحست بالاختناق لم تعد تتحكم في دموعها، الوفاء و الصبر قابلهما الإهانة و المذلة و التهميش، الإحساس بالإستغفال جعل ايزة تبدو جريحة و غير مصدقة لكل هذا الجحود..:

"ما أصعب مثل هذا الإحساس، لقد قضيت مدة 22سنة و أنا أنتظره متخلية عن كل حقوقي و حين افرج عنه تخلى عني بسهولة.. هكذا مثل اي قميص او حذاء ".

اليوم لا يزورنا إلا نادرا، لا يراني ولا يرى أبناءه، لا يتحمل مسؤولياته بالرغم من أنني مازلت على ذمته قانونيا. لا تسألوني عن شعوري تجاه كل هذا، فأنا لم يبق لي ثمة شيء أشعربه. أكره حياتي و أكره القانون الذي لايحميني. أنا الآن أعيش وحيدة مع ابنتي الصغرى التي لم تتزوج، كبر أولادي و تزوجوا لينصرفوا لرعاية أسرهم، جميعهم يكافحون من أجل تدبير قوت يومهم.

أعيش الآن وحيدة و متعبة، مشاكلي الصحية كثيرة، أحصد مضاعفات كل تلك السنوات، سوء تغذية، انعدام العناية الصحية، 22 سنة كلها شقاء من أجل لقمة العيش بل من أجل البقاء...من أجل فلذات كبدي.

أنا اليوم حزينة و لكن ايضا فرحة، أحس بالإكتآب و المرارة لعدم الوفاء، و اشعر بالفرحة لأن تضحياتي لم تضع فقد حميت ابنائي و جعلتهم يكملون تعليمهم رغم كل الظروف. أما جرحي... فلن يلتئم إلا حين أتوارى تحت التراب .

خديجة : قصة اغتصاب

خديجة، إحدى ضحايا العنف و القمع الذي عرفته فترة السبعينات، و هي الأحداث التي أدت إلى موجة واسعة من الاعتقالات في منطقة الأطلس كانت ضحية لها العديد من النساء القرويات الأميات، اللواتي لم يعرفن من السياسة غير الاسم، العنف قلب حياتهن رأسا على عقب و تخلى عنهن الجميع بعد أن طواهن النسيان. خديجة ضحية سياسة العقاب الجماعي ظلت حكايتها وحكايات مثيلاتها مجهولة، في خنيفرة و في غيرها من المناطق القروية المهمشة من البلاد. ظل الظلم الذي تعرضت له النساء مجهولا و سُكت عنه لفترة طويلة جدا، و في السنوات الأخيرة بدأ النقاب يُكشف عنه و يُعترف بالعديد من الأخطاء التي اقترفت في هذا المجال بما فيه سياسة الإعتداء الجنسي الذي يظهر أن الدولة أباحته حين تركت المعتدين بدون عقاب .

تحكي خديجة في كلمات متقطعة، قصة اغتصاب و استغلال في جبال الأطلس المتوسط.. في خنيفرة، حيث زارت قافلة الإنصاف و المصالحة، ابتدأت حديثها قائلة: "أبصرت النور في أسرة قروية فقيرة في جبال خنيفرة. كنا رعاة رحلا نعيش تحت الخيام و نتنقل بحثا عن الكلأ و المياه لماشيتنا. لي ثلاث أخوات و شقيقان. و نظرا لنمط حياتنا القائم على الترحال، لم تتح لنا و لإخوتي فرصة الالتحاق بالمدرسة، و لا يعرف أي منا القراءة أو الكتابة. كان والدي عضوا في جيش التحرير و كافح من أجل استقلال المغرب. و بعد وفاته، أصبحت أمي ربة الأسرة و عملت جاهدة على إعالتنا. و قد ساعدنا جميعا أمنا منذ نعومة أظافرنا في رعاية الماشية و جلب الحطب و الماء للأشغال المنزلية، و عشنا حياة صعبة و شاقة، لكنها كانت أيضا حياة أسرة سعيدة شبيهة بحياة كل الأسر المحيطة بنا .

في سن السابعة عشرة، تزوجت رجلا ينتمي إلى نفس قبيلة عائلتنا. كان زوجي أيضا راعيا، و دام زواجنا ثمان سنوات، ثم افترقنا. عشت مع أسرتي بعد ذلك، لكن بسبب عدم تفاهمي مع زوجة شقيقي، اضطررت و أمي إلى مغادرة بيت العائلة و انتقلنا إلى قرية مجاورة حيث قطنا أحد الكهوف. حدث كل ذلك في بداية الستينات. و بعد انتقالنا إلى الكهف، اعتُقلت وأمي في ظروف غامضة ومريعة من طرف السلطات بتهمة مساعدة مقاتلين من الثوار كانوا ينشطون في المنطقة، و اتهمتنا السلطات بأننا كنا نغسل ملابسهم و نطهو طعامهم. ما علاقة الملابس بالسياسة؟ لم نكن نعرف أي ثوار و عندما قاومت الجنود الذين جاءوا لاعتقالنا، تعرضت للضرب من طرف أحدهم و أصبت من جراء ذلك في ساقي إصابة بليغة.

بقيت و أمي رهن الاحتجاز طوال شهر كامل في ظروف غير صحية، إذ لم يكن يتوفر لنا و السجناء الآخرين أي فراش أو غطاء، و كنا نضطر إلى النوم مباشرة على الأرضية الباردة. كانت ملابسنا غير ملائمة، و عانينا البرد و سوء التغذية و العطش بسبب حرماننا من الطعام و الماء. و خلال النهار، كان السجناء يُجبرون على العمل الشاق لساعات طويلة و مجانا داخل ممتلكات المخزن .حيث يتولون حلب الأبقار و تغذيتها، و تنظيف الحظائر، و إزالة الأعشاب الضارة من الحقول، و نسج الصوف. و أثناء الليل، كان يرمى بنا داخل زنزانة باردة تغطي جدرانها مياه الرطوبة و الحشرات.

علاوة على الأشغال الشاقة التي أجبرت على القيام بها خلال ساعات النهار، تعرضت..."

سكتت برهة، كانت مترددة ، خجلة مما ستقوله ، زفرت و مسحت دموعها ثم أخرجت ما بجوفها فيما يشبه القيئ : "ويلي، لقد ضاعت حياتي، لقد تعرضت للاغتصاب من قبل عدة جنود كل ليلة لمدة أسبوعين. إنهم كانوا يتسللون ليلا إلى زنزانتي مثل اللصوص. كنت أرفض و أقاوم بشدة رغباتهم، و لكنهم لصيحاتي لم يهتموا. أخذوا ما أرادوه مني غصبا. كانوا يضربونني ثم يغتصبونني بعد ذلك. كل مرة كان يدلف جندي إلى زنزانتي و يجردني من ملابسي ثم يعتليني و يبدأ بتقبيلي رغما عني و يضاجعني بالقوة رغم صراخي و ألمي إلى أن يقضي وطره، و عندئذ يأتي جندي آخر من بعده، و يفعل نفس الشيء...نفس الشيء"

بدأت تبكي بحرارة ...دموع غزيرة لا تنقطع و كأن الماضي تجسد ثانية أمام أعينها....مرت لحظات عصيبة قبل أن تتمم حديثها:

" في معظم الليالي، كنت أتعرض للاغتصاب من قبل ثلاثة أو أربعة جنود مختلفين على الأقل. كان جسمي مليئا بالندوب و الخدوش و الجروح. لم أعد أمتلكه، لقد سرقوه مني و أصبح مشاعا بينهم، و نظرا لأني لم أكن أستطيع تنظيف نفسي بعد كل عملية اغتصاب بسبب عدم توفر المياه في الزنازن، فقد عانيت من إصابات و التهابات شديدة في المهبل. غير أن ذلك لم يمنع المغتصبين من معاودة الكرة كل ليلة. لمدة أسبوعين عشت خلالهما محنة أليمة و مؤلمة. لم يتدخل أي ضابط أو جندي لوقف الاغتصاب إلا بعد انقضاء أسبوعين، أصبحت خلالها دليلة مهانة، كنت أخجل من نظرات الآخرين لا أجرؤ على النظر في أعينهم، لأحد يغيثني من الحقارة التي عشتها آنذاك، أسبوعين من الاغتصاب و سوء المعاملة...، تمكنت أخيرا من تقديم شكوى إلى المشرف على الجنود، فأبعد الجنود عني، و توقفوا عن ولوج زنزانتي ليلا، و توقف الاعتداء علي .. لكن هل تتوقف الصورة أمامي؟ و هل يتوقف الألم الذي يعتصر قلبي و اتساءل اليوم ما اذا كان اولئك الجنود قد تعرضوا للعقاب او التوبيخ ام تركوا الى حال سبيلهم ."

" بعد الشكوى، أُرسلت للعمل في منزل المشرف و مزرعته حيث تكلفت بأعمال التنظيف و الغسل و الطبخ لأسرته، زيادة على الاعتناء بحيوانات المزرعة. كنت أقوم بهذا العمل بشكل مجاني طبعا. و من المحتمل أن يكون الهدف من هذا الإجراء هو منعي من تقديم شكوى إلى مشرفين أو مسؤولين آخرين في الدولة، و أيضا لعزلي عن السجناء الآخرين.

صحيح اني وأمي كنا نسكن احد الكهوف لكن رغم ذلك كنت معززة و لسبب أجهله أصبحت سجينة و خادمة بيوت رغما عني. لم أتصور يوما أنني أستطيع أن أحكي عن محنتي التي تخجلني، كنت أرغب أن يطويها النسيان، لكن ذاكرتي أبت أن تهضمها، بل خزنتها بكل بؤسها و ألمها الذي يعتصرني في كل لحظة بل و في كل حين. أحس في كل لحظة أنني لا أستحق ما وقع لي و أنني كنت ضحية. إن الطريقة التي عاملني بها الجنود اسوء من ان يعامل بها حتى الحيوان، فما بالكم أن يعامل بها إنسان. من حقي أن أحضى بالحماية و بالعيش الكريم في بلدي الحبيب.

هكذا الحكي عند خديجة يتقدم و يتأخر و يتوقف لارسال الشكوى و اختزال العبرة من الألم :

"بعد شهر من الاعتقال و العنف و السخرية، تم الإفراج أخيرا عني. عدت أول الأمر للعيش مع أخي الذي كان متزوجا ولديه تسعة أطفال، نظرا لأنه لم يكن ثمة أي مكان آخر أقصده. وقد عانيت من مشاكل صحية خطيرة بعد الإفراج عني، إذ كنت لا أبصر جيدا بعيني اليمنى بسبب التعذيب و العنف أثناء جلسات التحقيق. إن الجنود كثيرا ما كانوا يضربونني بالعصي و الأحزمة حتى على وجهي. إضافة إلى ذلك، و بسبب المضاعفات الناجمة عن الاعتداءات الجنسية المتكررة من قبل جنود عديدين، اضطررت إلى الخضوع لعملية جراحية لاستئصال الرحم، و هو الشيء الذي زاد من عذابي و جعل مني امرأة وحيدة طوال حياتي."

توقفت عن الحديث، تبكي في صمت، تكفكف دموعا أبت إلا أن تجود بها عيون دبلت مع الزمن.

" في النهاية، انتقلت مرة أخرى للعيش مع أمي في منزل أحد أبناء خالي، الذي قُتل لاحقا برصاصة في ظروف غامضة في الصحراء. لم أكن أتوفر على أي مصدر للدخل و كافحت للبقاء على قيد الحياة. و رغم حالتي الصحية السيئة و قصر نظري، لم أكن أملك خيارا آخر غير الاشتغال بالنسيج، رغم صعوبة المهنة علي، لإعالة نفسي و أمي. ليت متاعبي تنتهي عند هذا الحد، فالدولة لم تكتفي بما وقع لي، و لم تسألني يوما مما و كيف سوف أعيش أنا و أمي؟ بل أمرت باعتقالي مرتين في سياق أحداث بوعزة و كوليمة لسنة 1973. فالاعتقال الأول حدث خلال شهر رمضان و دام أسبوعين. كنت بصدد إعداد وجبة الإفطار في انتظار أذان المغرب عندما وقف الجنود فجأة ببابي. اتهموني بتقديم المساعدة للمنشقين في آيت خويا بخنيفرة على الرغم من أني لم ألتق بهم أبدا و ليس لدي أي علم بأنشطتهم أو مكانهم. تم احتجازي أول الأمر داخل زنزانة في مركز اعتقال سري، حيث تُركت لمدة يومين دون طعام أو ماء، و لم يتم إطعامي و إرواء عطشي إلا بعد أن نُقلت إلى سجن مجاور و بعد أن كنت على وشك الهلاك من وطأة الجوع و العطش. كان هذا السجن مزدحما للغاية، و كان الرجال و النساء على حد سواء معتقلين في أقسام منفصلة. طوال خمسة عشر يوما، كان يتم نقل السجناء يوميا إلى منطقة قريبة من أحد السدود حيث كانوا يُجبرون على العمل لحساب المخزن من الصباح إلى المساء، و كل من قاوم كان يتعرض للسب و الشتم و العنف. كنت أغسل ملابس الجنود، و أحلب الأبقار و أجمع الأعشاب الضارة من الحقول. لم أكن عرضة للاعتداءات الجنسية هذه المرة، لكني تعرضت للاستجواب و التعذيب، و أُجبرت على شرب المياه المالحة و القذرة و ضُربت بالعصا."

توقفت قليلا حين أحست بالتعب و هي تحكي، اشتد بها غضب شديد، بدت تلعن و تشتم بعنف يوم ولادتها، حاولنا تهدئتها....بعد ان روحت عن نفسها بالبكاء، أكملت قائلة:

" بعد الإفراج عني، ألقي القبض علي من جديد في 1973 و تم استجوابي و تعذيبي لمدة عشرة أيام، ثم أطلق سراحي في نهاية المطاف بعد أن تيقن الجنود أني لا أملك بالفعل أي معلومات عن المناضلين الذين كانوا يبحثون عنهم.

و منذ إطلاق سراحي و أنا أعيش حياة الضنك و الفقر. و يمكن للمرء أن يتصور أن تعرضي للاعتقال و الاحتجاز ثلاث مرات منفصلة في غضون عقد من الزمن قد سلب مني أي شعور بالأمن و جعلني أعيش في خوف مستمر من إلقاء القبض علي مرة أخرى. لا أزال أعاني من آثار التعذيب و العمل المضني، حاملة جراحي على جسدي. لم أشف بعد من أسبوعين من الاغتصاب الذي تعرضت له في الستينات، إنها كانت أسوأ تجربة في حياتي. الله وحده يعلم مدى الألم الذي يعتصر قلبي. لم أتزوج مرة ثانية أبدا، و بطبيعة الحال لم أنجب أي أطفال. و أنا الآن أحصل على دخل متواضع من أشغال النسيج التي أمارسها، كما أن شقيقي يرسل لي بعض المساعدات بين الحين و الآخر.

لقد كنت أجهل اي شيء عن الانصاف و جبر الضرر. لم يسبق لي أن قدمت أي شكوى خلال كل السنوات التي انقضت منذ المرة الأولى التي تعرضت فيها للاعتقال و التعذيب و الاغتصاب في الستينات، ثم من جديد في سنة 1973. و حالت ظروف الفقر و التهميش و العزلة التي كنت أعيش فيها دون المطالبة بحقوقي، شأني في ذلك شأن الكثير من النساء القرويات الفقيرات و المحرومات اللواتي عانين من ظلم كبير. لم أكن أعرف إلى أين أذهب أو كيف أشكي ما وقع لي عندما كنت رهن الاحتجاز. أنا امرأة ضعيفة و أمية و ليس لدي من يحميني. و في الحالات القليلة التي التمست فيها المشورة من الناس حولي، كان الكل يحذرني و يخيفونني من اتخاذ أي إجراء، و نُصحت بعدم إضاعة وقتي أو جهدي في ذلك، بعد أن فقد الكل الثقة في الدولة. و لم أتقدم بشكوى إلا بعد أن سمعت عن هيئة الإنصاف و المصالحة، فكتبت رسالة أطلب فيها مساعدة الهيئة، وردت علي هذه الأخيرة مطالبة إياي بالمجيء إلى الرباط .

إن طفولتي كانت أسعد فترة في حياتي. و أذكر بكثير من الحنين و الحب تلك الفترة التي كان فيها والدي على قيد الحياة حيث كنا نسافر إلى جبال الأطلس المتوسط بحثا عن الكلأ و المياه لماشيتنا. كنت أحس بالأمان و بأني كنت محاطة بحب أهلي. تلك هي الفترة الوحيدة من حياتي التي تبقى مقترنة في ذاكرتي بالسعادة. و بعد أن طلقني زوجي ، وجدت نفسي وحيدة و ضعيفة. و تم استغلال هذا الضعف لاستغلال جسدي و حبسي و تعذيبي و إرغامي على العمل الشاق و اغتصابي بوحشية، الشئ الذي تسبب في حرماني من الإنجاب إلى الأبد. و اعتبارا لكوني امرأة مطلقة و فقيرة و أمية ، عشت على هامش المجتمع أرزح تحت نير العار و أحمل داخل قلبي أسرارا ثقيلة عن احتجازي و اغتصابي و تعذيبي. و لعله ليس من قبيل الصدفة أني لم أتزوج مرة ثانية أبدا. فوصمة العار المرتبطة بالاغتصاب و الاحتجاز ساهمت إلى حد كبير في عزلتي طوال العقود الثلاثة الماضية و جعلت من زواجي مرة ثانية مسألة غير ممكنة على الإطلاق، بل و مستحيلة. من سيقبل بامرأة مثلي، هذا ما يجب أن يعرفه المسؤولون. لقد أصبحت وصمة عار على المجتمع و على نفسي.

لقد انقلبت حياتي رأسا على عقب بين عشية و ضحاها دون أن أكون قد ارتكبت أي خطأ أستحق عليه ذلك. لقد سُلبت مني حياتي و صحتي و كرامتي و حرمت من ان اكون اما... بعد كل ما عاشته النساء في خنيفرة من عنف و تعذيب و اغتصاب و عمل شاق و سخرة و معاناة، لم تتسلم بعد أي امرأة أي تعويض. و كم سيكون هذا التعويض،

و مهما يكن، فهل سيعالج الضرر الذي تعرضت له، و هل سيجبر العزلة التي أعيشها، و هل سيرجع لي قوة بصري التي ضعفت بسبب المعاناة التي عشتها، وهل التعويض سيعيد لي صحتي و رحمي الذي اقتلع و رمي في الزبالة.؟ هل بالنقود أستطيع أن أشتري الإحساس بالأمومة... ؟ " مرارا اتساءل مع نفسي عن المسؤول عن وضعيتي ؟ تصمت برهة ثم ترفع بصرها نحو الحضور مستفسرة : هل لديكم جواب ؟؟؟

امي حليمة : الأم الشجاعة

امي حليمة امرأة تسكن بضواحي الدار البيضاء في منزل متواضع. هناك تم اللقاء بها، و هناك بكت بحرارة و هي تحكي متذكرة ابنها المفقود الذي تعرض للاعتقال بسبب انخراطه في الحركات السياسية اليسارية في السبعينات و توفي في ظروف غامضة عقب إطلاق سراحه من السجن.

كان ذلك في بداية السبعينات، و هي الفترة التي شهدت بروز التنظيمات اليسارية الثورية، و عرفت حدوث محاولتين انقلابيتين، اتخذت الدولة على إثرهما إجراءات صارمة ضد جميع أشكال التنظيمات السياسية، كما اعتقلت العديد من النشطاء السياسيين في جميع أرجاء البلاد.

بكت بحرارة و هي تتذكر كفاحها المستميت كإحدى أمهات السجناء السياسيين الذين دمرت حياتهم و انقلبت عندما تعرض دويهم للاعتقال أو القتل. حكاية امي حليمة، حكاية امرأة تجسد شجاعة و تفاني و جهود أمهات يبحثن عن فلذات أكبادهن و يساندونهم بحبهن و عملهن، حكاية تفصح عن قدرة هائلة للتكيف مع الصعاب، إنها قصة كفاح و اسى جعلا من حليمة امرأة مناضلة تدافع بحماس و إيمان عن العدالة و الحقوق و الديمقراطية.

امي حليمة تقول عن حياتها الأولى :

"ولدت في قلعة السراغنة، غير أني أجهل تاريخ ولادتي، شأني في ذلك شأن العديد من النساء من جيلي. لم ألتحق أبدا بالمدرسة، و لم أتعلم القراءة و لا الكتابة. أصبحت أرملة في سن مبكرة عندما توفي زوجي الأول بعد فترة قصيرة من ولادة ابننا. ثم تزوجت مرة ثانية من رجل حنون و متفهم تعامل مع ابني و أحبه كما لو كان ابنه. رزقت بعدها بأربعة أبناء و بنتين. اشتغل زوجي كحارس، و كان دخله متواضعا. كانت العائلة تنتقل بين المناطق كلما تم تعيين زوجي في موقع مختلف. كنت أما و ربة بيت بكل معنى للكلمة، حياتي مبنية على إسعاد أبنائي و زوجي، و نادرا ما كنت أغادر المنزل، و لم يكن لدي احتكاك كبير بالناس، فعلاقتي بالخارج تكون دائما تحت الضرورة، كما لم أكن أعرف أي شيء عن السياسة.

كان ابني البكر يحب القراءة و التعلم، و كان محاطا على الدوام بالكتب، و كثيرا ما كان يسهر طوال الليل للقراءة و الكتابة بعد يوم كامل من العمل، و غالبا ما كان يدخل في حوارات طويلة و جدية مع الكثير من أصدقائه. و رغم أنه لم يخبرني بذلك، الآن فقط يمكنني أن أفهم مغزى كل تلك الاجتماعات و الحوارات الجادة و شغف ابني بالقراءة و الكتابة. لم أعرف بالضبط ما الذي تورط فيه، لكني أعلم أن الأمر له علاقة بالسياسة.

اكتشفت في أحد الأيام، عن طريق الصدفة، أن ابني سبق له أن اعتُقل مرة واحدة ثم أُطلق سراحه. انتابني بعدها الخوف على سلامته و طلبت منه أن يظل على اتصال دائم معي. و بعد أن أكمل دراسته الثانوية و حصل على الشهادات المطلوبة، بدأ التدريس في الدار البيضاء.

بعد انتقالي و عائلتي إلى الدار البيضاء عقب تعيين زوجي في وظيفة هناك، طلبت من ابني، الذي كان يعيش و يعمل في المدينة، الانتقال للإقامة معنا من أجل تفادي دفع إيجار منزلين اثنين، غير أنه رفض العرض و فضل أن يستمر في تقاسم إحدى الشقق مع بعض أصدقائه. أدركت لاحقا أنه لم يشأ أن يعرض الأسرة للخطر في حالة عيشه معهم تحت سقف واحد. كنت أزور ابني كثيرا، و كانت شقته دوما مليئة بالكتب و بالزوار أيضا. و في أحد الأيام، حذرني ابني في موضوع زياراتي المتكررة قائلا :

"أمي، حينما تأتين إلي، تأكدي أن لا يراك أحد و لا تخبري أحدا على الإطلاق". و في يوم آخر، سُرقت سترته و كانت فيها محفظة أوراقه. غير أن ما كان يهمه هو الأوراق التي كانت في جيوبه، استعادها لاحقا، بدون المحفظة. كان سعيدا لأجل ذلك، فلم يأبه كثيرا للمحفظة. بدأت عندئذ أدرك أن هناك شيئا أجهله، يحبه ابني كثيرا .

في أحد الأيام، جاء لرؤيتي و كان يبدو متضايقا. كنت منهمكة في غسل ثيابه حين طلب مني أن أجمعها جميعا و أضعها في كيس، أخذها ثم غادر المنزل. و طوال ثلاثة أيام، لم يتصل بي و لم يعد. بدأت أشعر بالقلق و طلبت من زوجي الذهاب للبحث عنه. كان هو الآخر قلقا عليه، لم يتأخر في البحث، فقد ذهب و سأل الجيران الذين أخبروه أن رجال الشرطة جاءوا قبل ذلك بيوم، و أنهم ضربوه و ألقوا القبض عليه و على جميع أصدقائه. رجع زوجي إلى البيت و أخبرني بالأمر".

توقفت امي حليمة للحظة، صامتة متصلبة، عيونها تقول أنها كانت تنبش ثنايا الماضي الأليم، تقرنه بحاضر أشد ألما، يغيب فيه ابنها الذي ظل اسمه و صورته مطبوعتان في فم الزمن، تتذكره بفخر و اعتزاز و هي تحكي متباهية بتضحية ابنها في سبيل الوطن. تنهدت بصعوبة ثم استرسلت حديثها :

"شعرت و زوجي بالحيرة و القلق و لم نعرف ماذا نفعل. بقينا لعشرة أيام على هذا الحال، عشرة أيام من الحيرة و البكاء و قلة النوم، لم نتوصل بأي خبر عنه. كنت في حيرة من أمري و غمرني إحساس عميق بالوحدة. لم أكن قادرة على التفكير في أي شيء آخر غير ابني، أتوجه إلى شقته كل يوم على أمل أن ألقاه هناك. كما ذهبت إلى مكان عمله و التقيت مع مدير المدرسة الذي أخبرني أنهم لم يروه منذ أكثر من أسبوع. حاول زوجي، عدة مرات الحصول على بعض المعلومات عن طريق ارشاء بعض المخبرين.

بعد مرور أيام من البحث، جاء ابن أحد الأقارب لزيارتي و وجدني أبكي، أخبرته بما حدث و عرض علي أن يُعرّفني على رجل اختفوا أقاربه أيضا. ذهبت لرؤيته و اكتشفت أن اثنين من إخوته قد اعتقلوا. كان رقيقا جدا في معاملته لي. قال لي ألا أتحدث مع أي شخص عما حدث لابني و طلب مني الابتعاد عن أولئك الأشخاص الذين يدعون أنهم من الشرطة و أن لاأعطيهم المال بعد اليوم. بعد لقائي مع هذا الرجل، أدركت أني لست وحيدة و أن ثمة الكثير من الأسر التي تعاني المأساة نفسها. و منذ ذلك اليوم، انضممت إلى مجموعة من الأشخاص مثلي ممن تعرض ذويهم للإعتقال، قدموا لبعضهم البعض الدعم و التضامن و المساعدة القيّمة. لقد أصبحت هذه المجموعة بمثابة أسرتي الثانية.

اكتشفت في آخر الأمر أن ابني كان محتجزا في درب مولاي الشريف، و هو مركز اعتقال سري في الدار البيضاء. لقد احتُجز هناك بصورة غير شرعية لمدة ستة أشهر في ظروف غير إنسانية، خضع خلالها لتعذيب وحشي. لم أتمكن بطبيعة الحال من رؤيته خلال كل تلك الشهور. ثم تناهت إلى أسماعي في أحد الأيام شائعات مفادها أنه نقل إلى مركز للأمراض العقلية في الرباط. تعرف عليه أحد أقربائنا الذي يعمل هناك، إلا أنه كان يصعب معها التأكد من هويته. إذ كان يبدو مشوّها بدرجة كبيرة من جراء جميع أصناف الضرب و التعذيب الذي تعرض له. و اكتشفنا بعد ذلك أنه قد تم نقله إلى السجن المركزي بالقنيطرة. لقد تغيرت حياتي بعدها. تصوروا كيف سأعيش و فكرة أن ابني يتعذب لدرجة التشوه تؤرقني و تمنعني من الأكل، ما الذي جعل شابا مستقيما مستقرا في عمله يسجن و يعذب، بل و يحرم من حياته بهذا الشكل الهمجي...هنا بدأ مسار حياتي يتغير باتجاه اكتشاف الحقيقة .

بدأت بعد ذلك أسافر بانتظام إلى الرباط حيث التقيت مع عائلات أخرى لسجناء سياسيين، و بدأت أشارك في الاحتجاجات و غيرها من أشكال التعبئة. كما بدأت أشارك في المسيرات و المظاهرات جنبا إلى جنب مع سائر الأمهات اللواتي تعرض أبناؤهن للاعتقال بصورة غير قانونية. و في إحدى المرات، اقتحمنا مكتب القنصلية الأميركية، كما وجهنا رسائل إلى مختلف المنظمات المعنية بحقوق الإنسان و إلى الصحف، و نفذنا وقفات احتجاجية أمام مكاتب الوزارة و قدمنا عرائض و ملتمسات. لقد تعرضنا جراء ذلك و في كثير من الأحيان للمضايقات و التعنيف و الاعتقال، بل و قضينا ليلة كاملة في مركز للشرطة رهن الاعتقال حيث تم استجوابنا و إذلالنا و ترهيبنا. كانت الأسر نشيطة بشكل خاص في تلك الفترة لتزامنها مع دخول السجناء في إضراب عن الطعام تسبب في وفاة سعيدة المنبهي، حيث أعربت أنذاك عن تضامني مع والدتها التي كانت نشيطة مثلي في حركة أسر السجناء السياسيين و التي فقدت ابنتها بشكل مأساوي. أتذكر تلك الفترة بتأثر بالغ و حزن عميق، ومع الوقت، و بالقدر الذي تنامى فيه وعيي و تشبعت بالسياسة عبر جهودي في سبيل كشف مصير ابني و الدفاع عن حقوق السجناء السياسيين، كبر و زاد احترامي لابني. لقد فهمت الآن ما الذي دفعه ليصبح مناضلا سياسيا على الرغم من كل المخاطر المحدقة بتلك المغامرة، و أحسست بالارتياح لتيقني من أن ابني لم يرتكب خطأ و أن كل ما كان يطمح إليه هو أن يصبح المغرب مجتمعا أكثر عدالة، و هو طموح أشاطره فيه من أعماق قلبي.

بعد ذلك، علمت أن أسر السجناء أصبح مسموحا لها بزيارة أبنائها. غير أنه بسبب أميتي و عدم خبرتي بالإدارة المغربية، لم أحصل على إذن بزيارته في السجن إلا بصعوبة بالغة. و في لقائي الأول معه، أصبت بصدمة عميقة. كان جسده مجروحا و وجهه منتفخ، لم يكن مكسوا بشكل لائق و تبدو عليه علامات المرض، أخبرني أنه تعرض لتعذيب و حشي و تم عزله في زنزانة انفرادية، كان يتحدث و يتحرك بصعوبة بالغة من جراء التعذيب و ظروف الاعتقال السيئة. ظللت أبكي لعدة ساعات متوالية، و فقدت القدرة على النوم و الأكل. بعدها لم أعد تلك الأم الخنوعة، قررت أن أغير حياة ابني بكل ما لدي من قوة.

سالت من عيني امي حليمة دمعتين، عنفوانها و افتخارها بابنها جعلا منها امرأة صامدة حيثما حلت و ارتحلت ، في حكيها قليل من الألم و كثير من التباهي بابنها :

"بعد محاكمة طويلة عشنا أطوارها بتطلع كبير، صدر الحكم على ابني بالسجن لمدة 32 عاما. كما أدين رفاقه بمدد تراوحت ما بين 10 و المؤبد. دأبت على زيارة ابني مرتين إلى ثلاث مرات في الأسبوع، بشغف كبير. أصبحت أعيش لأجل تلك الزيارات، لم يكن ثمة شيء آخر يهمني، و لم أكن أغادر المنزل إلا للذهاب لرؤية ابني أو للالتقاء بأسر السجناء السياسيين. كان زوجي، الذي أحبه كما لو كان ابنه من صلبه، و أبناؤنا الآخرون، الذين أحبوه كما لو كان شقيقهم، يزورونه كثيرا بدورهم. كان اهتمام العائلة بكامل أفرادها، رغم مواردها المحدودة، منصبا عليه و موجها لتلبية احتياجاته. كل ما يحتاج إليه يأتي في المقام الأول، و كل ما عدا ذلك يتم التضحية به. و من أجل الإعداد لزيارة السجن، كنت أمضي يوما كاملا في المطبخ. و في اليوم التالي، أغادر المنزل على الساعة الرابعة صباحا لألحق الحافلة، بعدها أستقل سيارة أجرة للوصول إلى السجن و تسليمه سلة مليئة بالأغذية و المؤن الأخرى. كانت الرحلات طويلة و شاقة، خاصة في أشهر الصيف الحارة و أشهر الشتاء الباردة و الممطرة. إلا أنني كنت أشعر بالسعادة في كل مرة أرى فيها ابني، و نظمت حياتي حسب تلك الزيارات التي كانت تمنحني الدعم النفسي و تعطيني الأمل و تمنح لحياتي هدفا و معنى. كان كل ما يمكنني أن أفكر فيه هو ابني الأكبر و تلك الابتسامة الكبيرة التي ترتسم على محياه في كل مرة آتي لزيارته. كان فخورا جدا بي عندما أخبرته عن انخراطي في حركة أسر السجناء السياسيين. لم ينزعج أبدا زوجي و أبنائي الآخرون من كوني كرست كل جهدي و وقتي لابني المعتقل في السجن، كنت أترك ورائي أطفالي الصغار عندما أذهب لزيارته أو عندما أشارك في أنشطة أسر السجناء السياسيين. فأبنائي كلهم كانوا يدعمونني و يتعاطفون مع قضية أخيهم، عكس جيراني الذين حرصوا على البقاء بعيدين عني و عن عائلتي، الشيء الذي ضايقني تلك الفترة، إلا أنه منحني شجاعة أكثر و أردت حينها أن أبرز أن ابني بطلا ضحى بحياته في سبيل الحرية و الكرامة. كانوا خائفين جدا من التحدث إلينا، و بعضهم أصبح مخبرا للشرطة. خلال تلك الأيام، عشت و أسرتي في جو مِلؤه الخوف و الريبة من كثرة المخبرين الذين يحومون حول بيتي، لدرجة أصبحنا معها لانثق في أي احد.

عانى أطفالي الآخرون معاناة كبيرة خلال تلك السنوات. شاهدوني أبكي ليلا و نهارا. تعرض أحد أبنائي بدوره للاعتقال و الاحتجاز بطريقة غير مشروعة لمدة أسبوع عندما كان في السابعة عشرة من عمره. جاء أفراد الشرطة للقبض عليه في الساعة 5 صباحا و اقتادوه بعيدا في سيارة جيب. احتجزوه لمدة أسبوع كامل تعرض خلاله للتعذيب و الترهيب. كان يُصعق بالكهرباء و يُعلَّق من رجليه في السقف (الطيارة). و بعد أن أُطلق سراحه، كانت الشرطة تأتي كل يوم، طوال شهر، لمقابلته في البيت و نقله إلى مركز الشرطة للاستجواب. بل إنهم ساوموا حريته في مقابل أن يصبح مخبرا لصالحهم إذا رغب في إطلاق صراحه، و كلما قابل طلبهم بالرفض كان جزاؤه الصفع و الركل و الضرب "مثل كرة

في ملعب لكرة القدم". كما صادروا بطاقة هويته و اضطر إلى تقديم طلب الحصول على بطاقة جديدة لكي يستطيع اجتياز امتحانات البكالوريا في تلك السنة. كاد أن ينقطع عن الدراسة. أصيب بصدمة نفسية من تلك التجربة و لم يشف منها أبدا، و أصبح يعاني المرض و القلق منذ ذلك الحين. شعرت بالعجز و تحطمت نفسيتي من جراء كل ذلك. عانيت كثيرا من تعذيب أبنائي، فتعذيب الابن هو اقسى تعذيب للأم .

بعد مدة، بدأ يتناهى إلى سمعي أن السلطات بدأت في الإفراج عن بعض رفاق ابني. كان ابني من بين آخر من أفرج عنهم من مجموعته. كانت الفرحة لا توصف بالنسبة لي و لعائلتي و هم يرون الإبن يسترد مكانه بينهم من جديد. لكن للأسف لم تدم فرحتنا طويلا و لم تتوقف متاعبنا .. فبعد الإفراج عنه، كانت الشرطة تأتي إلى منزلي كل يوم و تطلب التحدث إليه. ظل تحت مراقبة مستمرة من الشرطة التي كانت تتعقبه أينما ذهب. و في أحد الأيام، وجد سيارة في انتظاره خارج منزلنا ، حيث تم اختطافه و احتجازه بصورة غير مشروعة في الدار البيضاء و جرى استجوابه و ترهيبه لمدة ثلاثة أيام كاملة، ثم أطلق سراحه في منتصف الليل في حقل مهجور بمراكش. ظل لأكثر من ساعة جالسا هناك و هو معصوب العينين مرعوبا، لا يعرف أين هو و لا ما سيحدث له. و أخيرا، اهتدى إلى طريق حيث التقطه رجل و أخذه إلى فندق أمضى فيه ليلته. و في اليوم الموالي، عاد إلى المنزل و أخبرني أنه كان مسافرا، و لم أعرف القصة الحقيقية إلا لاحقا. لم يشأ ابني أن يقول لي أي كلمة عما حدث له، حرصا منه على ألا يزيد من قلقي. غير أني علمت بالأمر عندما سمعته صدفة و هو يتحدث إلى أصدقائه حول حقيقة ما جرى له. و نتيجة لذلك، عشت في قلق و رعب كلما غادر المنزل أو سافر.

وفي أحد الأيام، حدث ما لا يمكن وصفه. جاء ابني إلى المنزل حوالي الساعة 8 مساء. كنت أشعر بالتعب وكنت مستلقية في الفراش، طبع قبلة على جبهتي وأخبرني بنيته السفر في اليوم الموالي. لم يتناول وجبة العشاء..تتذكر امي حليمة .. وفي وقت مبكر من صباح الغد ، وبعد أن رن جرس المنبه، ارتدى ملابسه، وحمل حقيبته وغادر البيت بينما كنت لا أزال أعد وجبة الإفطار. ناديت عليه مرتين بينما كان يهم بالمغادرة، لكنه لم يسمعني ، كانت تلك المرة الأخيرة التي شاهدت فيها ابني حيا."

سكتت للحظة، و بدأت تمشي في الغرفة، وراء قوتها، تخفي ضعف الإحساس بالمهانة و الخداع، كاد أن يغمى عليها ، ارتشفت بعض الماء ، بعد برهة استرجعت وعيها و قوتها و استمرت :

"و بعد ثلاثة أيام و مع عدم ورود أي أخبار عنه، بدأ القلق يدب إلي. طلبت من صهري مطالعة الصحيفة للنظر فيما إذا كانت هناك أي أخبار، لكن لم يكن هناك أي ذكر له. في يوم، جاءنا اتصال هاتفي من صديق يقول أن طبيبا صديقا له اتصل به فأخبره أنه شاهد جثة ابني في مستشفى. بعد أيام عادت الجثة إلى الأسرة مكفنة داخل تابوت. و حتى وجهه

كان مكفنا. لم تكن لي الشجاعة لإلقاء نظرة على جثة ابني، و عشت في شك دائم من أن لا يكون هو المسجّى في ذلك التابوت. شُيّعت الجنازة بحضور مئات الأشخاص، من ضمنهم عدد كبير من رفاقه و زملائه.

الرواية الرسمية تقول إن نجلي كان مسافرا على متن القطار المتجه إلى سيدي قاسم عندما فقد فجأة صوابه و بدأ يشحذ المال من الركاب، فتم اعتقاله و اقتيد في سيارة إسعاف إلى المستشفى رفقة ممرض و ممرضة. و بينما كانوا في طريقهم إلى المستشفى، توقف الممرضان لتناول القهوة في أحد المقاهي على الطريق و تركا إبني داخل سيارة الإسعاف. و ادعيا أنه هرب من سيارة الإسعاف بينما كانا يحتسيان قهوتهما فصدمته حافلة ، أخذاه إلى مستشفى في سلا حيث فارق الحياة. لم يتم أبدا التعرف على الحافلة و لم يتم تحديد مكانها. كما أنه لم يُعثر على أي تقرير للشرطة عن حادث حافلة على تلك الطريق في ذلك الوقت و لم نبلغ قط رسميا بوفاته.

لا أصدق الرواية الرسمية عن وفاة ابني و أعتقد أنه لا معنى لها على الإطلاق. ابني لم يكن مجنونا عندما غادر المنزل. و حتى لو افترضنا أنه جن، فَهُم الذين تسببوا في جنونه من جراء جميع أصناف التعذيب و الضرب و المضايقات و الترهيب التي تعرض لها. و لكنه لم يكن مجنونا. ثم كيف يعقل أن يترك ممرضان مريضا مجنونا لوحده في سيارة إسعاف و يذهبان لاحتساء فنجان قهوة ؟ هذا هراء. لا معنى لذلك. ما أريد أكثر هو معرفة الحقيقة عن ظروف وفاة ابني. إني أفكر فيه كل يوم. و حتى أثناء الصلاة، لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير فيه. و عندما كنت في زيارة لقبره في إحدى المرات، اعتقدت أني رأيت رجلا يشبهه تماما. همت على نفسي في المدينة طوال اليوم مذهولة و حائرة، و تهت عن الطريق. لا أستطيع النوم إلا بصعوبة و أعاني من كوابيس حول تعذيب و موت ابني. إني في حالة لا أستطيع أن أتعافى منها طالما أني أجهل حقيقة ما حدث بالفعل.

إن ما يعطيني الأمل و يشكل عزاء لي اليوم، هو أن كفاح ابني و وفاته المبكرة لم يذهبا سدى. و عندما بدأت تذاع جلسات الاستماع العمومية التي نظمتها هيئة الإنصاف و المصالحة على شاشة التلفزيون، حرصت على مشاهدتها كلها من البداية إلى النهاية. كما حرصت على مشاهدتها مرة أخرى عند إعادة بثها و طلبت من أبنائي مشاهدتها معي. لم أصدق أذني و عيني عندما جلست أمام التلفزيون و استمعت إلى الضحايا يروون حكاياتهم عن تزمامارت و عن التعذيب و عن الاختفاء و الموت. الجميع حولي كان يتحدث عن جلسات الاستماع العمومية غير مصدق لها. إن الناس كانوا متأثرين و مصدومين، و تأثرت أنا بشكل خاص بحكاية امرأة فقدت اثنين من أبنائها. ابني كان سيشعر بالفخر، لقد كُشفت الحقيقة أخيرا. أصبح الناس يدركون حقيقة كل ما جرى لأبنائنا. و هذا يمنحني الأمل في أن ابني لم يمت عبثا. لقد قال لي مرة عندما كان في السجن إنه على استعداد لتحمل المعاناة و التعذيب، بل و الموت، حتى لا تضطر الأجيال القادمة إلى الكفاح و المعاناة مثله. لقد منحتني جلسات الاستماع العمومية الأمل في أن الأجيال القادمة لن تعاني مثلما عانى ابني.

أكنُّ لذكرى ابني احتراما عميقا و انا فخورة به، والذي آسف عليه هو انه لم يتزوج و لم ينجب اطفالا ...كنت سأحكي لأحفادي عن ابيهم و اقول لهم أنه كان رجلا رائعا .

تودة : كوابيس طفلة

إملشيل الأعراس غابت. و حضرت إملشيل سنوات الرصاص. لم تكن الدولة تختار بين الصغير و الكبير لتنفد عقوبتها، تودة طفلة بريئة، لم تنج هي الأخرى من العقاب و التعذيب. تحدثت عن العنف الذي تعرضت له في طفولتها عندما اعتُقل والدها في إملشيل سنة 1973. لم يكن يتجاوز عمرها ثلاث سنوات في ذلك الوقت. و تعطي رواية تودة، التي تستقي أحداثها جزئيا مما تختزنه ذاكرتها من وقائع و جزئا مما سمعته من أمها وأشقائها، أمثلة عن القسوة و الإهمال اللذين مارستهما الدولة اتجاه أطفال الخصوم السياسيين و أقاربهم. كما تُبين أن حب الأم للأطفال و تعلقها بهم كان يُستخدم كوسيلة لتعذيب النساء. و هكذا تعرضت أمهات للتعذيب أمام أعين أطفالهن، و تعرض أطفال للتعذيب أمام أعين أمهاتهم، مما تسبب في إصابة الأمهات و أطفالهن على حد سواء باضطرابات و صدمات عاطفية كبيرة على المدى الطويل. علاوة على ذلك، تُبين قصة تودة بجلاء أن الدولة لم تعر أي اهتمام للأطفال، بل على العكس عاملتهم بقسوة وإهمال كبيرين كجزء من سياسة العقاب التي انتهجتها، وأن عواقب العنف السياسي على حياة الأطفال كانت كبيرة.

"ولدت سنة 1970 في إملشيل، و كنت الطفلة الثالثة لأسرة مكونة من خمس بنات دون أي إخوة ذكور. عشت و عائلتي حياة بسيطة و سعيدة قبل أحداث سنة 1973. كانت لدينا مواردنا و ماشيتنا، و لم نُحرَم أبدا من أي شيء. عشنا حياة كريمة.

كنت أصغر من أن أتذكر كل الأحداث، بل أقص عليكم مما حكت لي أمي.

في أحد أيام سنة 1973، انقلبت حياة أسرتي الهادئة رأسا على عقب. احتل الجنود المنطقة بحثا عن الثوار. قاموا بترويع السكان و دمروا كل شيء صادفوه في طريقهم، و اختبأ الجميع في منازلهم. جاء الجنود إلى المنزل بحثا عن والدي الذي اتهموه بأنه ثوري و بأنه متورط في الاضطرابات التي عرفتها المنطقة. و عندما لم يجدوه في المنزل، قاموا باستجواب و تعذيب جميع أفراد الأسرة. لم تكن أمي تملك أي معلومات عن مكان أبي و كانت تجهل كل شيء عن أنشطته السياسة. شأنها في ذلك شأن جميع نساء الدوار الذي كنا نقطنه. لم تكن المسؤوليات الأساسية للأم تخرج عن محور رعاية البيت و الأسرة، و لم يكن أبدا من عادات النساء في إملشيل التدخل في أعمال و أنشطة أزواجهن خارج المنزل. كررت أمي على مسامع الجنود أنها لا تعرف أي شيء عن أنشطة أبي، لكنهم لم يصدقوها. قاموا بضربها و تعذيبها أمام أعيننا. رغم صغر سني آنذاك، فإن أمي حين تحكي عن تلك الفترة، تتوضح الصورة أمامي و أتذكر. إني أتذكر جيدا منظر الجنود و هم يضربون والدتي ويعذبونها .

قام الجنود بالاعتداء الجسدي علي و على إخوتي و تعذيبهم أمام أعين أمي بهدف ممارسة الضغط عليها و إجبارها على الإفصاح عن مكان أبي. اظن انكم لاحظتم اني معاقة في احدى رجلاي و لا امشي بشكل طبيعي مثل بقية البنات.

فقد كان الجنود يرفعونني من إحدى ساقَيّ و يتركونني معلقة. كانوا يجبرون والدتي على إخبارهم أين أبي و ماذا يفعل و مع من يعمل؟ وإلا فإنهم سيتركونني معلقة هكذا حتى تخبرهم.

كانت والدتي تصرخ و تتوسل إليهم أن يعفونني من العقاب، خصوصا و أنني مجرد طفلة لا تقوى على العقاب. لكن ذلك لم يغفر لي، فقد جعلوا مني أداة للضغط عليها من أجل البلوغ إلى أهدافهم. كانت النتيجة عاهة مستديمة برجلي تذكرني بالمأساة و تمنعني من المشي بشكل طبيعي.

عندما اقتحم الجنود منزلنا في ذلك اليوم، كانت والدتي تحمل إحدى إخوتي على ظهرها و كانت ترضع أخرى من ثديها. اعتُقلنا و تم اقتيادنا جميعا إلى سجن "بوزمو" حيث ظللنا رهن الاحتجاز لمدة شهر، و هناك عشنا في ظروف قاسية حيث كنا محرومات من الغذاء و الماء النظيف. كنا ننام على الأرض مباشرة دون أي فراش أو غطاء يقي البرد القارس. و كثيرا ما كنا نُجبر على خلع ملابسنا و البقاء عاريات في زنازننا. بل كنا نُترك خارجا في البرد و الثلوج دون أي ملابس، و قد عذبت امي بالصعق بالكهرباء و الخنق بخرق مبللة مغمورة في مياه مالحة إلى درجة الاختناق. و نتيجة لذلك، توقف جسم والدتي التي كانت بصدد إرضاع أصغر أخواتي من ثديها في ذلك الوقت، عن إنتاج الحليب من جراء التعذيب و سوء التغذية، لم تعد أختي ترضع حليبا، بل تحول الحليب إلى دم من كثرة القهر، و لا أزال أذكر ما عاشته أسرتي و منزعجة من صورة أختي الرضيعة و هي ترضع الدم من جسم أمي المعذّب. لازلت أتذكر قطرات الدم، شاهدة على مأساة نسجت خيوط الألم في ذاكرتي."

بدت و كأنها لاترغب في الكلام ثانية، انتفضت من مكانها و كأن بها مس من الجنون، تضرب بقوة بكفيها على رأسها، تبكي، تسب و تشتم، لحظة هستيرية طويلة عاشتها، نطقت بعد ذلك و الألم يعتصر قلبها :" بأي قلب سأعيش، و الماضي يمر أمامي في كل لحظة بأحداثه المتشابهة، فعندما كانت والدتي و أخواتها رهن الاحتجاز، بقيت و اثنتين من أخواتي لوحدنا في المنزل دون أي شخص راشد يتولى الاعتناء بنا، و كان علينا تدبر أمرنا للبقاء على قيد الحياة .

بقي المنزل الذي تُركت فيه أنا و أخواتي بعد اعتقال أمنا تحت مراقبة مستمرة من الجنود الذين كانوا يستجوبوننا كل يوم. كنّ (أي والدتي وأختي) في سجن المخزن، في حين كنا نحن مسجونات في المنزل. عانينا من الجوع الذي استغلوه أيضا كوسيلة للضغط علينا و تعذيبنا. مرة أخذ الجنود عنزة و ذبحوها أمام أعيننا و أكلوها مشوية و نحن أطفال جياع ننظر إليهم. كان ممنوعا على الجيران مساعدتنا أو إمدادنا بأي طعام. أحيانا كانوا ينجحون في تهريب بعض الطعام من السقف عندما تفتر مراقبة الجنود. صارعت وأخواتي للبقاء على قيد الحياة. كان الجنود يأكلون أو يفسدون كل ما لدينا من غذاء في المنزل، بينما نحن نعاني من الجوع. حاول خالي مساعدتنا، و لكن السلطات هددته بالسجن أيضا. كان لديه أطفال و خشي على سلامتهم و راحتهم، و لذلك ظل بعيدا عني و عن أخواتي من أجل حماية عائلته.

خلال مدة التعذيب، و كما حكت أمي، ألقي القبض على والدي الذي كان مختبئا في الجبال . و بعد أن أمضى شهرا في سجن " بوزمو " حيث تعرض للتعذيب و الاستنطاق، تم نقله إلى سجن آخر قبل أن يختفي. لم يكتب لي أن أرى والدي بعد ذلك أبدا. لا أعرف المكان الذي اقتيد إليه أو ماذا وقع له، و باءت كل محاولات الأسرة للعثور عليه بالفشل. و كلما حاولنا الاستفسار، كنا نتعرض للمضايقات من طرف رجال السلطة. كانوا يسموننا "أبناء المجرمين" و "الثوريين"، و أبلغونا أنه ليس لنا أية حقوق و أننا لسنا مغاربة في نظرهم. مما جعلنا نتوقف عن البحث عن والدنا بعد أن أصبنا بالإحباط من فشل محاولاتنا و أيضا من جراء الترهيب الذي تعرضنا له.

كنا نتعرض أيضا للمضايقات كلما حاولنا استخراج أوراق إدارية. لم نكن نملك دفتر الأحوال الشخصية (الحالة المدنية)، و من تم لم يكن بمقدورنا استخراج بطاقات الهوية، الشيء الذي حال بيننا و بين ممارسة أبسط حقوقنا كمواطنين. و نتيجة لذلك، لم نرتد المدرسة، و لم نستفد من الخدمات العامة، و لم نصوت، و لم نتلق أبدا أي تعويضات من الدولة، منذ أن اختفى والدنا، لم نتمتع بأي حقوق.

اختفى والدي، و وجدت أمي نفسها وحيدة مع خمس بنات لرعايتهن، بمن فيهن أختي التي كانت لا تزال رضيعة. لم يسبق لامي أبدا أن عملت خارج البيت، و لم تكن تتحدث العربية، إضافة إلى كونها أمية. كان الجنود قد سرقوا جميع ممتلكات الأسرة، و لم يكن لديها أي مصدر للدخل، و من تم فقد وجدت نفسها مضطرة إلى التسول في المدن المجاورة. كما حاول الجيران و غيرهم مساعدتنا من خلال مدنا بأغطية و بعض الأكل بين الحين و الآخر، إضافة إلى مساعدة خالي.

توفيت والدتي قبل الأوان بسبب مضاعفات الاعتقال و التعذيب و الفقر. كما توفيت إحدى أخواتي ، و هي لا تزال شابة، من شدة الإحساس بالقهر و الحسرة تاركة وراءها طفلين. "

"بعد سنوات من فقدان الأمل في العثور على والدي، تلقينا رسالة تفيد بأنه قد توفي في سجن القنيطرة. لا أستطيع أن أتذكر على وجه الدقة التاريخ الذي تم إبلاغنا فيه ذلك الخبر. و لكن الواضح هو أننا بقينا دون أي أخبار عدة عقود. لم نرى أبدا جثمانه و لم نعرف أين وري الثرى، و ظل هذا الأمر مصدر حزن و كرب عظيمين لي و لأخواتي اللواتي عجزن عن إقامة الحداد عليه. إن أكثر ما أتمناه هو أن أعرف أين دُفن والدي حتى أستطيع زيارة قبره. إنني أحس بحزن عميق كلما رأيت فتيات مع آبائهن، أسأل نفسي لماذا ليس لدي أب؟ ... أقول لنفسي لو لم يؤذوننا و لو لم يأخذوا والدي بعيدا عنا لكان حاضرا معنا الآن، و لكنا عشنا معا في سلام. و بدلا من ذلك أصبحنا جميعنا خمسة أيتام."

توقفت ثانية لتبكي أباها الذي بكته متخفية حين مات، تبكيه بحرارة و كأنه توفي الآن، بعد برهة استرسلت الحديث.

" اسمحوا لي إذا لم أستطع منع دموعي من الانسياب، إنني أحس أن الدولة قد نسيتنا و أهملتنا و أنها تعاقبنا ظلما. لقد ترملت والدتي في سن مبكرة و عانت كثيرا من رؤية أطفالها يتعرضون للتعذيب و الاعتقال و يقاسون الجوع

و البرد. لقد توفيت مع إحساس بالذنب في قلبها لعجزها عن حمايتنا من الأذى. لم أكن و شقيقاتي محرومات من أبينا فحسب، بل كنا محرومات أيضا من حقنا في الحزن و الحداد عليه. لقد عشنا حياة على هامش المجتمع، مليئة بالفقر و الصراع و كنا محرومات من جميع الحقوق. إني لا أستطيع أن أنسى كل ما عانيته و أنا طفلة صغيرة. لم أصدم من التعذيب الذي تعرضت له لأنه تسبب لي في عجز جسدي فحسب، و إنما صدمت أيضا بسبب التعذيب الذي تعرضت له أمي و أخواتي و والدي.

توقفت عن الكلام ..و لاشئ في هيئتها يدل على انها اخرجت كلما بداخلها من آلام ، ..عيناها تنظران نحو ذلك البعيد الذي يسكنها ، قلبها مليئ بالحسرة و الأوجاع ..طلبت كوب ماء، شربت منه و رشت الباقي على وجهها علها تستفيق من هذا الكابوس الذي لايفارقها .

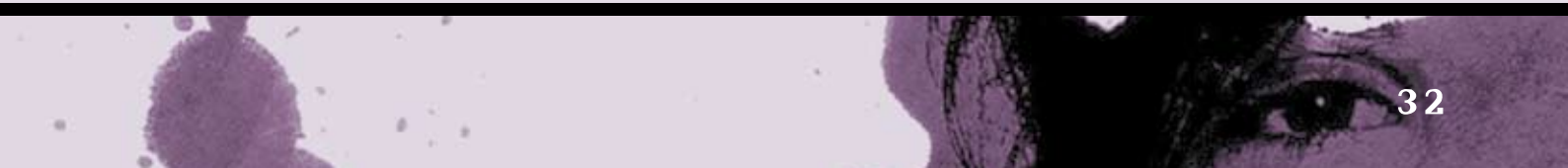

Oxygen Design

المجلس الإستشاري لحقوق الانسان
ساحة الشهداء , ص ب 1341
الهاتف : 07 22 72 37 212+
الفاكس: 56 68 72 37 212+
البريد الالكتروني : ccdh@ccdh.org.ma
الموقع الإلكتروني : http://www.ccdh.org.ma

ISBN : 978-9954-1-0005-9
Dépôt légal : 2008/2577